

١- إهتمام الخلفاء العباسيين وحكام الدول المستقلة بالتجارة

لم تقتصر عناية الخلفاء العباسيين على الزراعة والصناعة وحدها ، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة ، حيث حرصت الدولة العباسية على بذل أقصى قدر من العناية بطرق المواصلات الداخلية وتأمين طرق التجارة البرية والبحرية وتزويد القوافل التجارية بالحراس لحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق هذا بالإضافة إلى الجهود التى بذلتها الدولة فيما يتعلق بإنشاء الجسور والقناطر فأقاموا الآبار والمحطات فى طرق التجارة ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار وكان لذلك أكبر الأثر فى نشاط التجارة الخارجية والداخلية وأصبحت قوافل المسلمين تجوب السبلاد وسفنهم تبحر عباب البحار ، كما شجع خلفاء العصر العباسى الأول التجارة تشجيعاً غير مباشر بما أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلاطهم (١) ، وبخاصة حين اتحدوا تحت سلطان واحد مع الفرس الذين اعتادوا الوفرة والرخاء فى العيش ، فمما فى نفوسهم حب البذخ والرفاهية ونمت معه الحاجة إلى المنتجات الأجنبية (٢) .

شجعت الدولة العباسية التجار بالطلب على السلع والبضائع الثمينة والنادرة من قبل الخليفة وكبار رجال الدولة ، وأدى ذلك إلى زيادة الطلب عليها من البلاد الأجنبية ، وقد بلغ تشجيع الخلفاء لهم أنهم أعفوه من ضرائب التجارة ، بل وقدموا لهم هدايا نقدية ، كما عمل العباسيون على تأمين إقامة التجار والحفاظ على أموالهم وأموالهم ، حيث حرصوا على إنشاء الفنادق والأسواق والخانات لتسهيل إقامة التجار الأجانب فضلاً عن التجار العرب المسلمين الوافدين من الولايات الإسلامية (٣) .

اجتمعت كل هذه الظروف والأحوال التى تشجع ازدهار التجارة فى العصر الذى ارتقى فيه العباسيون الأوائل عرش الخلافة (٤) ، ويتضح من هذا أن العرب قاموا فى العصر العباسى برحلات بحرية تبدأ من بغداد وتسير فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا والصين ، فقد كان التجار يشجعون مثل هذه الرحلات التى تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين (٥) .

كانت هناك علاقات ودية مع الصين منذ أيام الأمويين ، وتطورت تلك العلاقات إلى الأفضل مع ارتقاء العباسيين لعرش الخلافة ، فاستمر تدفق التجارة عبر الطريق البرى القديم المعروف بطريق الحرير (٦) المنحدر من الصين صوب الغرب

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٣ ، ١٩٩١ ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ . -

حسين الحاج حسن : حضارة العرب فى العصر العباسى ، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢٠٧ .

(٢) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ترجمة أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) محمد فتحى الشاعر : الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٥ .

(٤) هايد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٦) طريق الحرير القديم : هو طريق تجارى قديم ربط بين الشرق (الصين) والغرب ، ولما كان الحرير الصينى أرقى البضائع وأهمها التى تنقل عبر هذا الطريق وأغلاها ثمناً ، إذ احتفظت الصين بسر إنتاجه مدة لا تقل عن ألفى سنة ، كانت خلالها المصدر الوحيد للأقمشة الحريرية الرقيقة الفاخرة التى تصل الغرب ، ولهذا فقد أطلق الجغرافى الألمانى فرديناند فون رشتوفن على هذا الطريق اسم طريق الحرير .

إيرين فرانك وبراونستون : طريق الحرير ، ترجمة أحمد محمود ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٨ ، ١٣ .

قتدفت صادرات الصين على الشرق الإسلامى ، وبدأت السفن العربية والتجار العرب يدخلون مياه جزر الهند الشرقية وجنوب الصين(١).

احتلت تجارة المسلمين فى العصر العباسى الثانى المكانة الأولى فى التجارة العالمية (٢) ، فقد كان الخلفاء العباسيون وملوك الدول المستقلة فى العصر العباسى الثانى من أكثر الحكام اهتماماً بالتجارة والتجار ومن أشد الناس حرصاً على العدل والإنصاف خاصة فى حقوق التجارة ، مما أدى إلى إقبال التجار من كافة أنحاء العالم ومن الصين إلى الدولة الإسلامية لما تتمتع به من عدل وأمان .

ومن أهم الأمثلة الدالة على ذلك الرواية التى ذكرها نظام الملك حيث ذكر أن : { تاجراً أتى بلاط السلطان محمود الغزنوى وتظلم إليه من ابنه مسعود فى حسرة وتوجع وقال : « أنا امرؤ تاجر مضت علىّ مدة هنا وأرغب فى العودة إلى مدينتى ، ولكننى لا أستطيع ، لأن الأمير مسعود اشترى منى بضاعة وأقمشة بستين ألف دينار دون أن يدفع عنى وأريد أن ترسلنى والأمير مسعود إلى القاضى » .

فرق قلب السلطان محمود لكلام التاجر ، وبعث برسالة شديدة اللهجة إلى مسعود أمره فيها : « أريد أن تقضى له حقه الآن وإلا تعال لتمثل معه أمام القضاء لتطبق عليكما أحكام الشريعة » ومضى التاجر إلى مجلس القاضى ، فى حين قصد الرسول مسعود وأدى إليه الرسالة فقال مسعود للموكل بالخزانة : « انظر ما فى الخزنة من الذهب نقداً » ، فذهب ونظر وعاد فقال : « ليس ثمة أكثر من عشرين ألف دينار » قال مسعود : « خذها وامض بها إلى التاجر واستمهله ثلاثة أيام لباقى المبلغ » ثم قال لرسول السلطان « قل للسلطان : إننى دفعت إلى الرجل عشرين ألف دينار فى الحال ، وسأعطيه حقه كاملاً بعد ثلاثة أيام ، وإننى لأقف الآن مرتدياً قبائى فى إنتظار ما يأمر به السلطان » فذهب الرسول ولكنه عاد إلى مسعود مرة أخرى ، وقال : « يقول السلطان إما أن تتوجه إلى مجلس القضاء ، وإما أن تدفع مال التاجر إليه ، واعلم أنك لن ترى لى وجهاً ما لم تؤد حق الرجل إليه كاملاً » ولم يجرؤ مسعود على أن يضيف إلى كلامه السابق حرفاً وأرسل رسلاً إلى مختلف النواحي يطلب قرضاً ، فما أن أزف وقت صلاة العصر ، حتى وصلت إلى التاجر الستون ألف دينار ، فلما تناهى هذا الخبر إلى أطراف العالم أخذ التجار ينهالون على غزنة (٣) من الصين وغيرها من المناطق يحملون ما فى العالم من تحف ونفائس { (٤) .

وكذلك ذكر الكرديزى أنه « فى عهد ولاية الأمير محمد بن محمود الغزنوى على الدولة الغزنوية ، والسدى تولى الإمارة مكان أبيه محمود الغزنوى ، صار العيش حلوا للناس طراً ورخصت الأسعار وسر الجنود والتجار على السواء ولما وصلت أخبار ثراء غزنة وسعة عيشها إلى المدن والبلدان الأخرى قصدها التجار من أنحاء بعيدة وأحضروا معهم الأمتعة والأقمشة والملابس الجميلة » (٥) .

كذلك اهتم الخلفاء العباسيون بعقد الاتفاقيات التجارية والسياسية وإرسال البعثات والسفارات إلى الصين لتأمين التبادل التجارى ، فقد شهدت فترة حكم العباسيين نشاطاً ملموساً فى العلاقات الدبلوماسية العربية الصينية (٦) ، فسجلت تاريخ الصين خمسة عشر سفارة من العباسيين فى نصف قرن خلال الفترة بين (٥١٣٣ / ٧٥٠ : ١٨٤ / ٨٠٠ .

(١) منى حسن أحمد محمود : طرق التجارة فى العالم الإسلامى ، ندوة طرق التجارة العالمية ، اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ١٢١

(٢) حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٣٣ .

(٣) غزنة : بلاد متسعة فى طرف خراسان .

- القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ، عالم الكتب ، بيروت-لبنان ، ص ٤٦٧ .

(٤) نظام الملك : سياست نامه ، ترجمة يوسف حسين بكار ، دار الثقافة ، الدوحة - قطر ، د. ت ، ص ٢٩٦ .

(٥) الكرديزى : زين الاخبار ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٦) محمد فتحي الشاعر : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

م) جاءت إلى الصين لزيارات ودية أو لتقديم الهدايا للإمبراطور الصيني(١) ، يتضح من ذلك أن معظم هذه السفارات أدت إلى تحسين العلاقات التجارية وتقديمها ، بين العرب والصين ، فقد كانت السفارات التي جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء (٢) .

وصفوة القول : إن عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها كان له أكبر الأثر في رقي التجارة وازدهارها(٣) .

٢- سياسة الدولة السامانية في تشجيع التجارة مع الصين :

فقد أقام السامانيون دولتهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وكان الصينيون أقرب البلاد إليهم من الناحية الجغرافية فسعوا في البداية إلى بسط نفوذهم في بعض مدن ما وراء النهر غير أنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ولم يلبث النفوذ الصيني أن تضاعف في هذه المناطق في عهد السامانيين الذين أحكموا قبضتهم عليها قرابة مائة وثمانية وعشرون عاماً في الفترة (٢٦١ : ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ : ٩٩٩ م) . (٤) ونشطت التجارة بين الشرق الإسلامي والصين في عهد السامانيين حيث كان الطريق آمناً بين حدود الصين وخراسان(٥) .

ويشهد تاريخ السفارات أن أباطرة الصين كانوا على صلة دبلوماسية بالأمرء السامانيين وتوثقت هذه الصلات في عهد الأمير نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ : ٣٣١ هـ / ٩١٣ : ٩٤٢ م) . أمدتنا المصادر بمعلومات غاية في الأهمية عن مملكة كين وصلاتها بالبلاد السامانية ، فذكر ياقوت الحموي عن أبي دلف أن « نصر بن أحمد الساماني كان ملكاً عظيماً الشأن كبير السلطان ... فذهبت إليه رسل ملك الصين قائلين بن الشيخير راغبين في مصاهرته طامعين في مخالطته يخطبون إليه ابنته فأبى ذلك واستنكره لحظر الشريعة له فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين فأجاب إلى ذلك فاغتنمت قصد الصين معهم .

فأرسل نصر سفارة سامانية أسند رئاستها إلى أبي دلف فقصده أبو دلف بلاد الصين على رأس البعثة الدبلوماسية فسلك بلاد الأتراك حتى قدم مدينة سندابل وهناك قابل الملك الصيني فخاطبه الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من نوح بن نصر فأجابهم إلى ذلك وأحسن ضيافتهم وأقام أفراد السفارة عند إمبراطور الصين فترة من الزمن ، حتى تجزأت أمور المرأة وتم ما جهزها به ثم سلمها إلى مائتي خادم وثلاثمائة جارية من خواص خدمة وجواريه وحملت إلى خراسان إلى نوح بن نصر فتزوج بها(٦) .

وهذا النجاح الذي أحرزته السفارة السامانية كان من شأنه أن يربط السامانيين بملوك الصين بصلات طيبة ، فتولدت من هذا الزواج علاقة وثيقة بين دولة السامانيين ومملكة كين في شمال الصين ، وفتحت أمام التجار المسلمين الطريق إلى

(١) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٥٠ ، ص ١٨٦ .

(٢) عصام الدين عبد الرؤف الفقى : معالم تاريخ وحضارة الإسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ١٥٢ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٤) محمد أحمد محمد أحمد : العلاقات الدبلوماسية بين بني سامان وملوك الصين ، مجلة كلية الآداب ، سوهاج ، العدد الرابع ، ١٩٨٥ ، ص ٢٩٣ .

(٥) بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٠ ، ج ٣ ، ص ٥٠١ : ٥٠٤ .

الصين(١) . وقد ساعد ذلك على إغراء بعض التجار العرب البقاء في الصين والاستقرار فيها ، فتمركز عدد كبير من التجار العرب بميناء خانفو وجنوبي الصين وغيرها من الموانئ(٢) .

٣- دور سفارات التجار العرب في تشجيع التجارة في عهد أسرة سونغ

وجد في تاريخ أسرة سونغ (٩٦٠ - ١٢٧٩ م / ٣٤٩ - ٦٧٨ هـ) أن أغلب هذه السفارات كانت بهدف تحسين العلاقات التجارية بين العرب والصين ، ولذلك فالسفارات التي جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء ، ويظهر أن أكثر هذه السفارات قد اختارت طريق البحر وقليلاً منها جاوز أواسط آسيا إلى الصين براً ، وتكشف لنا هذه السفارات المكانة التي اكتسبها التجار العرب في أسواق الصين ولدى البلاط الصيني(٣) حتى أن هناك بعض التجار كانوا يحرصون على اتخاذ صفة المبعوثين للحصول على الهدايا النفيسة والوافرة من الإمبراطور الصيني(٤) ومن أهم هذه السفارات التي جاءت من قبل التجار ما ورد من سفارات في سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م وسنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م.

والسفارة الأولى منهم جاءت من قبل تاجر عربي عظيم بكانتون وله مراكب تجارية تجرى في البحار ويعرف هذا التاجر بـ (إبراهيم بن إسحاق) وهو تاجر كبير معروف في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وكان يتاجر مع الصين فنسب إليها من كثرة ذهابه إليها . وفي سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م بعث إبراهيم بن إسحاق صديقاً له نائباً عنه إلى قصر الإمبراطور فوكله بتقديم الهدايا إلى إمبراطور الصين ، ففضل الإمبراطور بقبول الهدايا وأنعم على إبراهيم بن إسحاق برسالة سنية يشكر له فيها هداياه كما أنعم عليه بمخلعه الشرف وصناعات فضية في مقابل هداياه .

وقد دون تاريخ الصين أيضاً وصول ربان عربي كبير في سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م معروف باسم أبي عبد الله الذي بعثه إبراهيم بن إسحاق يحمل رسالة شكر وهدايا للإمبراطور ولما مثل بين يدي الإمبراطور قال له أمرني إبراهيم بن إسحاق أن أحضر إلى العاصمة الصينية لرفع كلمة الشكر إلى الإمبراطور على هذا العطف الكريم ، وتقدم بعض الهدايا من حاصلات بلاد الشرق ، فأمر الإمبراطور أن يخلع على أبي عبد الله مخلعة سنية وأن ينعم عليه بأشياء أخرى ثمينة وأنزله عنده ضيفاً عدة شهور ثم ودعه بحفاوة وإكرام ورد الهدايا بأحسن منها ذهب وحرير وشكر له ما بعث به إبراهيم بن إسحاق إليه(٥).

من هذا يتضح أنه في عهد أسرة سونغ كان عدد العرب الوافدين إلى الصين كثيراً وكان معظمهم من التجار حيث كانت حكومة سونغ تعامل هؤلاء الوافدين العرب معاملة ود وصادقة كما أن هؤلاء الرسل الذين جاءوا لتقديم الهدايا كانوا يحظون بحسن المعاملة من الموظفين الصينيين في كل مكان وصلوا إليه ، فكانت تقام لهم على سبيل المثال ، حفلات غناء عند الاستقبال والتوديع ، وتقام على شرفهم الولائم، ويركبون الهوداج ويمتطون الخيول ويقابلون كبار الموظفين في جميع المناطق الإدارية (٦) .

المبحث الثاني

سياسة الصين في تشجيع التجارة مع الشرق الإسلامي

١- اهتمام الحكومة الصينية بالتجارة والسفارات التجارية :

(١) محمد أحمد محمد أحمد : المقال السابق ، ص ٣٠٧ ، ٣١٠ .

(٢) أنور الجندي : الإسلام تاريخ وحضارة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د. ت ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) بدر الدين حي الصيني : المرجع السابق ، ص ١٨٩ ، ١٩١ .

(٤) لي رونج جيان : تاريخ العلاقات الصينية العربية .. حاضرها ومستقبلها ، ٢٠٠٦ . <http://www.arabsino.com>

(٥) بدر الدين حي الصيني : المرجع السابق ، ص ١٩١ ، ١٩٦ .

(٦) قوه ينغ ده : تاريخ العلاقات العربية الصينية ، ترجمة تشانغ جيا مين ، مجلة الصين اليوم ، العدد ٨ أغسطس (آب) ٢٠٠٢ . -

كان لحكومة الصين اهتمام عظيم بالتجارة ، وزادت أهميتها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حيث وضعت الحكومة يدها على زمام التجارة وجعلتها نوعاً من احتكاراتها، فعمدت إلى تنشيط الأعمال التجارية من خلال إرسال إمبراطور الصين وفوداً إلى الخارج يحملون معهم الخطابات المختومة بخاتم الإمبراطور ومقداراً من الذهب والفضة لشراء البضائع والدعايا بين التجار الأجانب بسواحل المحيط الهندي وترغيبهم في زيارة الصين ووعدهم برخصة خاصة لبضائعهم (١)، ويوضح هذا أن الصين كانت من أسبق دول العالم في الوصول إلى أسلوب البعثات التجارية إدراكاً منها لأهميتها للأقتصاد الصيني(٢).

وكانت النتيجة التي ظهرت من مساعي الحكومة في تنشيط التجارة الخارجية واضحة جداً . فامتألت مخازن الحكومة الصينية في غضون أيام قلائل بالعاج وقرون الكركدن واللؤلؤ وجميع الأنواع من السلع والتجارات التي وردت من الشرق الإسلامي (٣) ، وبذلك كانت التجارة الخارجية بالنسبة لحكومة الصين مورداً من أهم موارد الدولة فاهتمت حكومة الصين باتخاذ التدابير والخطوات اللازمة لتنظيمها تنظيماً دقيقاً (٤) .

وقد دخلت الصين منذ منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي في عهد مملوء بالحوادث والاضطرابات التي قضت على أسرة تانغ في النهاية سنة ٩٠٦ م وبعد ذلك مرت على مسرح سياسة الصين خمس أسر حاكمة قصيرة العهد ، فلم تستقر كلها على العرش سوى ست وخمسين سنة ، لم تترك أى منها خلال هذه الفترة أى أثر في سياسة الصين الداخلية أو الخارجية (٥).

أوشكت الاتصالات الصينية العربية على التوقف التام نتيجة للاضطرابات السياسية داخل الصين في أواخر عهد أسرة تانغ وعهد الأسر الخمسة ولم تعد إلا مع ظهور أسرة سونغ(٦).

فمع ظهور أسرة سونغ (٩٦٠ : ١٢٧٩ م) في الصين ، فتحت صفحة جديدة من الروابط التجارية والدبلوماسية التي كانت منقطعة بين الصين والعرب في القرن السابق بسبب بعض الثورات وأعيدت الروابط التجارية مرة أخرى كنتيجة لسياسة حكومة سونغ في تشجيع التجارة الخارجية (٧).

فقد سعت حكومة سونغ سعيًا حثيثاً لتنمية التجارة خاصة مع بلدان الشرق الإسلامي رغبة منها في استغلال أسواق الشرق والسفن التجارية الأجنبية لزيادة الدخل السنوي ، فبلغت العلاقات الاقتصادية بين الصين والشرق الإسلامي ما لم تبلغه من قبل إذ قامت بين الطرفين تجارة متعددة الأشكال علاوة على التجارة التقليدية المشروطة بتقديم الهدايا للحكومة الصينية تحت شعار دفع الجزية والأتاوة وتلقى عطايا منها رداً على هذه الهدايا .

فأجبرت الحكومة التجار والسفراء على الخروج في رحلات بحرية من أجل اجتذاب من يتقدم بالهدايا إلى الصين وهو ما كان يقصد به استقدام التجار الأجانب ليقدّموا الهدايا إلى البلاط ويقوموا بالأعمال التجارية فصدر مرسوم يطلب من إدارة شئون السفن الأجنبية والتجارة الخارجية أن تستقدم الأجانب الذين يقدمون الهدايا ، كما أصدر الإمبراطور مرسوماً يقول بأن أعظم الخيرات هي واردات السفن التجارية الأجنبية كما أصدر مرسوماً آخر يقول بأن الواردات من السفن

(١) Chau Ju Kua : His work on the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteen Centuries , Translated from Chinese by Hirth & Rockhill, New York, 1966, p. 19 .- ١٣٤ . المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) شوقي عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندي ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٠ ، ص ٢٥٩ .

(٣) بدر الدين حي الصيني : المرجع السابق، ص ١٣٤ .

(٤) Chau Ju Kua : Op.Cit , p.19 .

(٥) بدر الدين حي الصيني : المرجع السابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٦) قوه ينغ ده : تاريخ العلاقات الصينية العربية ، ترجمة تشانغ جيامين ، مجلة الصين اليوم ، العدد ٨ أغسطس (آب) ٢٠٠٢ .

<http://www.Chinatoday.com>

(٧) بدر الدين حي الصيني : المرجع السابق، ص ١٨٩ .

الأجنبية والتجارة الخارجية تساعد خزانة الدولة إلى حد كبير فيجب أن تتبع السياسة السابقة الذكر لاستقدام التجار الأجانب بحيث يشكلون جسراً لتبادل الثروات والنفائس (١) .

ويتضح من هذا أن أسرة سونغ استخدمت السفارات بهدف تحسين العلاقات التجارية بين الصين والعرب ، حيث كانت السفارات التي جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء (٢) . حيث كان للحكومة الصين اهتمام عظيم بالتجارة وزادت أهميتها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حيث وضعت الحكومة يدها على زمام التجارة وجعلتها نوعاً من احتكاراتها ، فعمدت إلى تنشيط الأعمال التجارية من خلال إرسال إمبراطور الصين وفوداً إلى الخارج يحملون معهم الخطابات المختومة بخاتم الإمبراطور ومقدار من الذهب والفضة لشراء البضائع والدعايا بين التجار الأجانب بسواحل المحيط الهندي وترغيبهم في زيارة الصين ووعدهم برخصة خاصة لبضائعهم (٣) ، ويوضح هذا أن أن الصين كانت من أسبق دول العالم في الوصول إلى أسلوب البعثات التجارية الدبلوماسية إدراكاً منها لأهميتها للاقتصاد الصيني (٤) .

١- إهتمام الحكومة الصينية بالتجار ومعاملتهم :

ولذلك اهتمت الحكومة الصينية بالتجار وحسن معاملتهم في داخل البلاد الصينية وتوفير الأمن والأمان لهم ، وقد شجعت هذه الأمور التجار العرب والمسلمين في الشرق الإسلامي على التجارة مع الصين ، حيث كان للتجار المسلمين حرية مطلقة في الانتقال بين بلدة وأخرى في داخل بلاد الصين ، كما كان لهم حرية في الإقامة بأي مرفأ من المرفأ الصينية ، ولحفظهم من الوقوع في الخطر وتأمين أموالهم وأنفسهم كانت الحكومة الصينية قد وضعت قانوناً خاصاً يقضي بتسجيل المسافرين في داخل الحدود الصينية وما معهم من الأمتعة والأموال ، وقانوناً آخر يقصد به مراقبة الفنادق والمسافات بينها بجميع المدن الصينية (٥) .

ولكي تعمل الحكومة الصينية على المحافظة على أمن التجار الأجانب من العرب والمسلمين وسلامتهم وحفظ متاعهم وأموالهم من الضياع ، ألزمت التجار على ما يشبه أجوزة السفر (٦) داخل بلاد الصين نفسها حتى لو كان هذا الانتقال من مدينة لأخرى في داخل حدود الصين (٧) .

فقد ذكر سليمان التاجر أن « من أراد سफراً في بلاد الصين من بعضها إلى بعض يجب عليه أن يأخذ كتابين ، كتابا من الملك (حاكم البلد) وكتاب من (وكيل التجارة) فأما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه ومن أية قبيلة هو ؟ فجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لابد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به ، وأما كتاب وكيل التجارة فهو خاص بالمال وما مع التاجر من المتاع وذلك لأن في طريقهم مسالخ (٨) هما موظفون ينظرون في الكتابين ، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا « ورد علينا فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا » حتى لا يذهب من مال الرجل و من متاعه شيء ضياعاً فمضى ما ذهب منه شيء أو مات علم كيف

(١) قوه ينغ ده : تاريخ العلاقات الصينية العربية ، مجلة الصين اليوم ، ترجمة تشانغ جيامين ، العدد ١٢ ديسمبر (كنون الأول) ، ٢٠٠٢ م .
<http://www.Chinatoday.com>

(٢) بدر الدين حى الصيبي : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(٣) بدر الدين حى الصيبي : المرجع السابق ، ص ١٣٤ . Chau Ju Kua : Op.Cit, p. 19 .

(٤) شوقي عبد القوي عثمان : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٥) بدر الدين حى الصيبي : المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(٦) جواز السفر : الجواز في اللغة هو صك المسافر وجمعه أجوزة :

- عبد الله بن العباس الجراوى : تقدم العرب في العلوم والصناعات ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦١ ، ص ١٣٠ .

(٧) بدر الدين حى الصيبي : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٨) مسالخ : مفردا مسلح أى مخفر للتفتيش . سليمان التاجر وأبو زيد السراقي : أخبار الصين والهند ، تحقيق

يوسف الشاروني ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، ص ٥٠ .

ذهب ورد عليه أو على ورثته من بعده» (١) ، وهذان الكتابان يشبهها جواز السفر في الوقت الحاضر حيث يضم جميع لوازم صاحبه وحقوقه في البلاد التي يسافر إليها (٢).

ولم يكن جواز السفر معلوماً في بلاد الصين فحسب بل عرفه العرب وإن كانوا استعملوه على نطاق ضيق للغاية ، فقد كان من أخطر الأمور التي تهدد كيان بلد ما أو مملكة ما تسرب الغريباء إليها خلصة وتغلغلهم في أنحائها واستقصاؤهم خفاياها وكشفهم عن أسرارها فكم من دولة ابتليت بهذا البلاء فذهبت ضحية هذا الأمر في العصور القديمة والوسطى ، ومن هنا ظهرت أهمية جواز السفر حيث تنبّهت الحكومات منذ قديم الزمان إلى أضرار مثل هذا الدخول غير المشروع لبعض الغريباء من التجار أو غيرهم فعمدت إلى اتخاذ شيء سمي بالجواز يحمله كل من يدخل بلداً أجنبياً (٣).

ولم يقتصر اهتمام الحكومة الصينية بالتجار على ذلك فحسب بل شمل أيضاً مراعاتها لقواعد التعامل بين التجار فوضعت القوانين المنظمة لهذا التعامل (٤)، فمثلاً كانت التجارة في الصين تجوز بعقد الدين وأصحابه قلما أنكروا حق ذوى ذوى الحق عند التراجع لأن الحكومة الصينية كانت تنكل بالمنكرين بعقوبة جسمانية ومالية معاً (٥).

فقد ذكر سليمان التاجر أنه « قد عرف عن أهل الصين الإنصاف في المعاملات والديون فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتاباً وكتب الذى عليه الدين أيضاً كتاباً وعلمه بعلامه (٦) ثم جمع الكتابان فطويا فمضى جحدهما غرمة قيل له أحضر كتاباً بأن هذا الحق ليس عليك فمضى بين عليك صاحب الحق الذى جحدته فعليك عشرون خشبة على الظهر وعشرون ألف فكوج فلوس ، والفكوج ألف فلوس يكون ذلك قريباً من ألفى دينار والعشرون خشبة فيها موته ، ولذلك فليس يكاد أحد ببلاد الصين يجرؤ على فعل ذلك مخافة تلف النفس والمال وهم يتناصفون بينهم ولا يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين» (٧).

٢- اهتمام الحكومة الصينية بالفنادق والخانات :

وكذلك حرصت الحكومة الصينية على إقامة كثير من الفنادق داخل كل ضاحية وعلى مسافات متفرقة ليزيل بها التجار الوافدون من مختلف الأرجاء ، كما أقاموا على طرق التجارة المؤدية إلى مختلف الولايات الصينية محطات بها دور لراحة المسافرين تسمى خانات ، وقد أمر الخان الأعظم بغرس الأشجار على جانبي الطرق العامة كما أمر بأن توضع على جانبي الطرق أحجار وأقيمت أعمدة لتكون بمثابة علامات لهداية التجار المسافرين بهذه الطرق (٨).

كما حرصت الحكومة الصينية على مراقبة الفنادق فقد كان نظام الفنادق بالصين نظاماً جيداً الإحكام تتمتع من خلاله التجار المسلمون برعاية خاصة من قبل حكومة الصين ، ورقابة جيدة على الفنادق كان الهدف منها حماية الأغراض السامية ، ومنع التجار من الوقوع في الفساد وضياع أموالهم وكان تدبير الحكومة الصينية في ذلك كما أورد ابن بطوطة في رحلته :

« أن إذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير في التزول عند تاجر مسلم من المسلمين المستوطنين هناك أو في الفندق ، فإن أحب التزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وأنفق عليه منه بالمعروف فإذا أراد هذا التاجر السفر بحث عن ماله فإذا وجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذى ضمنه ، وإن أراد التاجر التزول

(١) سليمان التاجر وأبو زيد السيراى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٢) بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٣) عبد الله بن العباس الجراى : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٤) شوقى عبد القوى عثمان : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(٥) بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٦) علمه بعلامه : أى بصم أو وقع عليه. سليمان التاجر وأبو زيد السيراى : المصدر السابق ، ص ٥٥٠ (٨٥) .

(٧) سليمان التاجر وأبو زيد السيراى : المصدر السابق ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٨) ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٥ ، ج ٢ ، ص

بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو الذى يشتري له ما يجب ويحاسبه ، فإن أراد التسرى اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون باهما بالقرب من الفندق ، أما إنفاق ماله فى الفساد فشئ لا سبيل له - حيث إن مبدأ حكومة الصين - تقول فى هذا أننا لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أن التجار المسلمين يخسرون أموالهم فى بلادنا بالصين»(١).

ويبدو من هذا أن التجار المسلمين تمتعوا برعاية خاصة من جانب حكومة الصين وكانت هذه الرعاية نتيجة لأهم يمثلون العصب الرئيسى للتجارة فى الصين فضلاً عن قوة المسلمين عالمياً فى ذلك الحين ، ومن هنا يتضح الحرص التام من جانب الحكومة الصينية على سمعتها أمام العالم الخارجى ، وهذا الحرص مبعثه التقدم الحضارى بالإضافة إلى الرواج الاقتصادى الذى يحدته التجار المسلمون بالبلاد ، ولذلك حرصت الحكومة الصينية على توفير الحماية الكافية لهم والعناية التامة بأحوالهم وترك حرية التنقل لهم كما وضع ذلك أيضاً فى مراقبة الفنادق والطرق الواصلة بينها ، هذا ما كان عند ورود التاجر من الخارج ، أما سفرهم فى داخل الصين ، فقد أدى هذا لأن تصبح الصين من البلاد التى يقطعها المسافر وأيا كانت الأموال التى معه فلا يضع منها شئ (٢) .

ولهذا شهد ابن بطوطه أن : « بلاد الصين آمنة البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين فإن الانسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة ، فلا يخاف عليها وترتيب ذلك أن لهم فى كل منزل بيلادهم فندقاً عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كتابه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم ، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كتابه فدعا كل إنسان باسمه وكتب به تفصيلاً وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثانى له ويأتيه براءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه وإن لم يفعل طالبه بهم ، وهكذا العمل فى كل منزل ببلاد الصين ويوجد فى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافرون من الأزواد واللوازم»(٣).

٣- اهتمام الحكومة الصينية بنظم وأشكال الأسواق بالصين :

فقد تمتعت الأسواق بالصين بجهاز رقابى صارم ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن الجهاز الرقابى للأسواق فى الصين يختلف كثيراً عن نظيره بالشرق الإسلامى ، فجهاز الرقابة بالصين هو جهاز للإشراف ، له أوسع السلطات للتفتيش على جميع أجهزة الدولة وعلى كل الموظفين فى الجهاز الإدارى ، وفى عصر أسرة سونغ بالصين كان الرقيب(٤) مختصاً بالإشراف على أجهزة الدولة فى العاصمة فقط ، ولكن فى عصر الأسر اللاحقة كان له الإشراف على جميع أجهزة الدولة . من هنا يتضح أن لوظيفة الرقيب نظيراً فى الحضارة العربية يتمثل فى شخصية المحتسب (مفتش السوق) إلا أن الأخير يمثل بالشرق الإسلامى وظيفة دينية محددة فى حين تتركز مهمة الرقيب بالصين فى الإشراف على أجهزة الحكومة(٥). ونستدل على مدى شدة مراقبة الأسواق بالصين مما ذكره الكرديزى عن النظام الصارم الذى وضعه ملوك الصين فقال « ففى قصر الملك يوجد مائة وثمانون من الطبول حينما تغرب الشمس يقرعونها دفعة واحدة وعندما يسمعها الناس

(١) ابن بطوطه : تحفة النظار ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) شوقى عبد القوى عثمان : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) ابن بطوطه : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤) الرقيب : الرقيب بالصين مفتش على جميع موظفى الدولة وأجهزتها الإدارية بما فيها الجهاز التجارى ، فى حين مفتش السوق (المحتسب) بالشرق الإسلامى هو رقيب على التجارة والتجار .

توبى أ.هاف : فجر العلم الحديث (الإسلام - الصين - الغرب) ترجمة أحمد محمود صبحى ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٧ ، ج ٢ ، ص ٨١ * .

(٥) توبى . أ. هاف : المرجع السابق ، ص ٨١ .

- نستنتج من ذلك أن وظيفة المحتسب بالشرق الإسلامى وظيفه دينية تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويقوم من خلالها بنشاط رقابى تجارى واسع على الأسواق ، لكن وظيفة الرقيب بالصين وظيفه مدنية تقوم على التفتيش على جميع أجهزة الدولة بما فيها الجهاز التجارى والأسواق

يهربون إلى منازلهم وعند غروب الشمس لا يبقى في السوق شخص مطلقاً ويأتى العسس شاهرين سيوفهم في الأسواق والطرق وكل من يجدونه خارج المنزل في ذلك الوقت يضربون عنقه في الحال ويكتبون على ظهره : هذا جزء من يخرج عن أمر الملك» (١)

ونستدل على ذلك أيضاً مما ذكره ماركو بولو عن نظام الأمن المتبع داخل الأسواق والطرق بمدينة خان بالق العاصمة من قوله إنه « يوجد بوسط المدينة جرس كبير معلق في بناء مرتفع يدقونه كل ليلة ثلاثة مرات متتالية ولا يجسر إنسان بعد الدقة الثالثة أن يتواجد في الشوارع حيث تخرج مجموعات من الجنود والحراس تعرف بالعسس في دوريات بشوارع المدينة طوال الليل ويقومون بالبحث جدياً عن أفراد قد يكونون خارج بيوتهم أو في الأسواق في ساعة غير مناسبة أى بعد الدقة الثالثة للجرس الكبير فإذا وجدوا أي شخص ألقوا القبض عليه فوراً وحسوه ثم يحكمون عليه طبقاً لطبيعة الغرض من المخالفة التي ارتكبتها وقد تصل عقوبات هذه المخالفات إلى الضرب الشديد وهو أمر قد يترتب عليه أحياناً موته» (٢).

كما ذكر ابن بطوطة في هذا الصدد قوله « أننى ما دخلت مدينة من مدن الصين ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين فلما عدت من القصر في المساء مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى قصر الملك ونحن فيه فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم ويقصد هدفهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعث صورته إلى البلاد ويبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ » (٣).

٤- عدل أباطرة الصين وسماحتهم وحسن معاملتهم للتجار المسلمين

ومما يروى عن ذلك من السيرافي والمسعودي حيث ذكر أنه : « حكى أن رجلاً من بلاد خراسان خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق فحمل منها جهازه وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان ، وركب إلى بلاد كله ثم ركب هذا التاجر من كله في مراكب الصينيين إلى مدينة خانفو بالصين . ولما بلغ ملك الصين خير المراكب وما فيها من الجهاز والأمتعة أرسل خادماً من خواص خدمه ممن يثق به فصار الخادم حتى أتى مدينة خانفو وأحضر إليه التاجر ومعهم التاجر الخراساني فعرضوا عليه ما احتاج إليه من المتاع وما يصلح له ولملك الصين فسأل الخراساني أن يحضر متاعه فأحضره وجرت بينهم مشادة بخصوص الأمر في تامين المتاع ، فأمر الخادم بسجن الخراساني وإكراهه على البيع.

ولكن التاجر الخراساني ثقة منه بعدل الملك مضى من فوره حتى أتى مدينة أنموا وهي دار الملك فوقف موقف المتظلم ، وقد رتب بعض ملوك النواحي للتحفظ على من يرد من المتظلمين ، فصمم الخراساني في المطالبة والظلامة فرآه محققاً غير متلجلج فحمل إلى الملك فوقف بين يديه وقص حديثه على الملك ، فلما أدى الترجمان إليه ما قاله وفهم ظلامته أمر به إلى بعض المواضع وأحسن إليه ، وأحضر الوزير وصاحب المينة وصاحب القلب وصاحب الميسرة فأمرهم الملك أن يكتب كل واحد منهم إلى صاحبه بالناحية ليعرف صحة الأمر فكتبوا إلى أصحابهم بخانفو أن يكتبوا إليهم ما كان من خبر التاجر والخادم ، فوردت الكتب بصحة ما قاله التاجر .

فبعث الملك فاستحضر الخادم فلما وقف بين يديه سلبه ما كان أنعم به عليه ثم قال له : عمدت إلى رجل تاجر قد خرج من بلد شاسع وقطع مسالك واجتاز ممالك في بر وبحر فلم يتعرض له يأمل في الوصول إلى مملكتي ثقة منه بعدلى

(١) الكرديزي : المصدر السابق ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ .

(٢) ماركو بولو : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

ففعلت به ما فعلت وكاد ينصرف عن ملكي ويقبح الأحدث عن سيرتي أما لولا قدم حرمك بنا لقتلتك لكن أعافيك بعقوبة إن عقلت فلها أكبر من القتل وهي أن أوليك مقابر الموتى من الملوك السالفة فقد عجزت عن تدبير الأحياء والقيام بما إليه نذبت ، وأحسن الملك الى التاجر وأرسله إلى خانفو وقال له : إن سمحت نفسك أن نبتاع منك ما اختير لنا من متاعك بالثمن الجزيل الذى تقررره وإلا فأنت المحكم فى مالك أقم حيث شئت وبع كيف شئت وانصرف راشداً حيث شئت ، وصرف الخادم إلى مقابر الملوك » (١).

ويتضح من ذلك أن إمبراطور الصين ملك حسن السيرة عادل فى رعيته رفيع فى همته قادر فى سلطانه تصل أمور رعيته إليه من غير منع ولا توسط حيث كان له فى قصره مجلساً قد أتقن بنيانه له فيه كرسي ذهب يجلس عليه الملك ، ووزراؤه حوله فى كل جمعة مرتين وعلى أعلى رأسه جرس معلق تمتد منه سلسلة ذهب إلى خارج القصر مهدمة الوضع ويتصل طرف السلسلة إلى أسفل القصر فإذا جاء المظلوم بكتاب مظلمته جاء إلى طرف السلسلة فاجتذبا فيتحرك الجرس فيخرج وزير الملك يده من الطاق وذلك علامة يفهم بها أنه يقول له إصعد إلينا فيصعد المظلوم هناك إلى المجلس على درج مختص بصعود المظلومين حتى يقف بين يدي الملك . فيمد الملك يده إلى المظلوم ويأخذ منه الكتاب وينظر فيه ثم يدفعه إلى وزرائه ويحكم له بما يجب الحكم به بما يقتضيه مذهبه وشرعه من غير تسويف ولا تطويل ولا وساطة وزير أو حاجب (٢).

ونتيجة لهذه السياسة السمحة التى اتبعتها حكومة الصين مع التجار العرب استطاعوا منذ أواخر القرن الثانى الهجرى / بداية القرن التاسع الميلادى أن يستقروا فى ميناء خانفو إلى الجنوب من مدينة شنغهاى الحالية وكان لهم بفضل كرم الإمبراطور وسماحته قاض مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم فى الصلاة كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين ويحصلون على جوازات وتسهيلات خاصة تسمح لهم بالتنقل فى داخل بلاد الصين ابتغاء التجارة مع أهلها بل كان الإمبراطور نفسه يأمر بشراء بعض بضائع العرب لحسابه الخاص ، كما كانت حوانيت كبار التجار الصينيين تزود التجار العرب بوفرة من منتجات الصين لشحن سفنهم عند عودتها (٣).

وبذلك فقد اتخذت حكومة الصين وخاصة فى عصر أسرة سونغ عدة إجراءات لتوسيع نطاق التجارة الخارجية فأنشئت دائرة للتجارة والملاحه فى خانفو والزيتون كما أنشئت دوائر مماثلة فى عدد آخر من المدن التجارية ، وشرعت حكومة سونغ فى توثيق العلاقات مع التجار العرب فأوفدت مبعوثين محملين بالهدايا إلى بلدان فارس والعرب ، الأمر الذى شجع الكثير من هؤلاء التجار على القدوم إلى الصين . وتشجيعاً للتجارة التى كانت مقصورة على التجار المسلمين فى ذلك الحين سنت حكومة سونغ قانوناً يعاقب كل من يسئ إلى التجار الأجانب ويقضى بعزل الموظفين الصينيين المختصين من مناصبهم إذا صدرت عنهم هذه الإساءة ، كما يقضى بمحاكمة كل من يشارك فى خطف تاجر أجنبى أو انتهاك حرمة (٤).

وهكذا فقد لاقى العرب هناك لزمناً طويلاً ترحيباً كبيراً من حكام الصين كما كان القضاة هناك يعاملونهم مثلما يعاملون المواطنين الصينيين (٥) ، ومن المؤكد أن المعاملة الحسنة للتجار وشعورهم بالأمن وترحيب السلطات بهم دفعهم إلى مداومة التجارة بالموانئ الصينية رغم المغالاة فى بعض الضرائب والرسوم الجمركية التى كانت بعض السلطات الصينية تفرضها أحياناً (٦).

(١) سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى : المصدر السابق ، ص ١١١ : ١١٣ . -

المسعودى : مروج الذهب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٢ ، ج ١ ، ص ١٤٠ : ١٤٢ .
(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ص ٤٢ .

(٣) هايد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ . - حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٤) فهمى هويدى : الإسلام فى الصين ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨١ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٥) هايد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٦) شوقى عبد القوى عثمان : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

فقد كانت الحكومة الصينية تفرص على تنظيم التجارة تنظيمًا دقيقًا فتمت قيود عدة كانت تفرضها الحكومة الصينية على السفن الواردة والصادرة من وإلى الصين (١).

٥- إهتمام الحكومة الصينية بمراعاة القوانين المنظمة للضرائب والمكوس الجمركية

فالرأبنة الأجانب الذين كانوا يقودون تلك السفن إلى مرافئ الصين قد فرض عليهم الحضور إلى إدارة المراقبة للتجارة البحرية ، لتسجيل أسمائهم ووجود هذه الإدارة في خانفو والزيتون والخنسا أكبر دليل على إهتمام الحكومة الصينية بهذه التجارة ، فقبل الترخيص لأى مركب بالسفر أو تفريغ شحنته يطلب من الریان أن يقدم كشف بالتاجر والسلع الموجودة بالمركب إلى ناظر الإدارة المذكورة . فتجى عليها الضرائب ورسوم النقل في مياة الصين ، وقد كانت البضائع الثمينة أو النادرة ممنوعة التصدير وكان العمل على تهريب البضائع موجبا للعقاب بالسجن على قدر أهمية السلعة .

ويجب على الریان أن يسلم جميع ما في المركب من التاجر والبضائع إلى المأمورين بإدارة المراقبة عند الوصول إلى مرفأ خانفو ويودعها في مخازن الحكومة حتى وصول آخر المراكب لموسم التجارة فحينئذ تؤخذ ثلاثون في المائة من البضائع ضريبة أو رسوماً للجمرك ويرد الباقي منها إلى أصحابها (٢).

ولسليمان التاجر السيرا في ملاحظات في هذه النقطة حيث ذكر أنه « إذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحرين (٣) ثم يؤخذ من كل عشرة ثلثه ويسلم الباقي إلى التاجر وما احتاج إليه السلطان أخذه بأعلى الأثمان وفوراً ولم يظلم فيه ، ومما يأخذون الكافور المنا (٤) بخمسين فكوجاً والفكوج : ألف فلس وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان فإنه يساوى نصف الثمن » (٥).

وربما كان الغرض من احتجاز السلع كلها حتى نهاية موسم الملاحة الوافدة (الصيف) هو ضمان إتاحة فرص عادلة أمام توزيع البضائع المستوردة أو ربما كان الغرض هو تخفيض الأسعار وذلك باغراق السوق بالسلع والحد من زمن البيع لأولئك التجار الذين كانوا يريدون الإبحار غرباً مع الرياح الموسمية حين تغير اتجاهها (٦).

تطورت أجهزة المراقبة على التجارة البحرية بالصين فانتسعت هذه الإدارة فأطلق عليها في سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م اسم إدارة الجمرك بسبب التقدم التجارى وتطور العلاقات التجارية بالخارج ولتحصيل أوفر حظ من منافع التجارة أسست دار الجمرك في تلك السنة وبعد بضع سنين أعلنت احتكارها للتجارة الخارجية وبناءً على هذا الإعلان أصبحت التجارة مع الأجانب عن غير طريقها موجبة للعقاب (٧).

فقد ذكر شوجوكوا أن « نظام الجمارك اتسع بالصين ، فبعد أن كان هذا النظام متركزاً بميناء خانفو امتد إلى غيرها من الموانئ فأنشئت الجمارك العامة بعدد من الموانئ وخاصة ميناء الخنسا ، ففى سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م أسست إدارة جمركية فرعية بمدينة هانغ تشو (الخنسا) ، كما صدرت الأوامر إلى جميع المرافئ أن العطور والبضائع الأجنبية القيمة القليلة الورد يجب أن تودع بمخازن الحكومة بعد ورودها إلى الصين إما بخانفو (كانتون) أو بالزيتون (جوان شو) ، وفى عهد

(١) جورج فضل حوران : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٢) بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣) ومعنى ذلك أنه إذا وصل التاجر بسفنهم أخذ الصينيون بضائعهم وأودعوها المخازن وتولى الدرك (أى الشرطة) تأمينها ضد الحوادث لمدة ستة أشهر إلى أن تصل آخر السفن حتى انتهاء فصل الرياح الموسمية .

سليمان التاجر وأبو زيد السيرا في : المصدر السابق ، ص ٤٧ هـ (٧١) .

(٤) المن : وحدة كيل أو ميزان والجمع أمان ، والمن يزن رطلان .

ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، د . ت ، ج ٦ ، ص ٤٢٧٩ .

(٥) سليمان التاجر وأبو زيد السيرا في : المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٦) جورج فضل حوران : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٧) بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(تائي جو) وعهد (تائي جونغ) (٩٦٠ : ٩٩٧ م) من أسرة سونغ نشأت وظيفة جديدة هي مراقب التجارة البحرية والذى كان من واجباته مراقبة تفريغ مشحونات السفن التجارية وجمع الضرائب «(١)».

ويتضح مما سبق أنه في بادئ الأمر كانت إدارة الجمرك يقتصر وجودها على ميناء خانفو (كانتون) فقط . فلما اتسع نطاق التجارة وكثر ورود السفن من الخارج عجزت هذه الإدارة عن مراقبة التجارة الخارجية التي تقدمت سريعاً فزاد النشاط وكثرت الحركة التجارية ، فدعا الحال إلى إنشاء إدارات أخرى بجميع المرافئ وعين فيها المأمورون المستقلون عن إدارة المراقبة بخانفو وترك لهم تنظيم شئونها .

وعند ورود السفن كان المراقبون ووكلاء التجار يصعدون إليها ويختبرون ما فيها من السلع والبضائع ، فيقدرون قيمتها ثم يأخذون رسوم التفريغ على أساس عشرة في المائة بالنسبة إلى القيمة الأصلية (٢) وأما ضرائب اللؤلؤ والكافور وجميع الأنواع من البضائع النفيسة فتؤخذ من جنسها ، فالتجار يستطيعون بعد ذلك أن يبيعوا متاجرهم في أسواق الصين بحرية كاملة(٣).

أما عن من يتولى الإشراف على الضرائب والجمارك ذكر ماركو بولو أن « الخان الأعظم يختار اثني عشر نبيلاً من ذوى المكانة الرفيعة ويوليهم عدة مهام من أهمها الإشراف على كل موضوع يتعلق بجمالية الضرائب والجمارك بالصين »(٤).

والمراقبة الشديدة التي كانت تجرى في الصين في هذه الفترة لم تكن مقصورة على السفن الواردة ، بل تعدتها إلى السفن الصادرة من الصين أيضاً ، كانت هذه المراقبة تنفذ على المراكب الصينية فقط ؛ لأن مراكب الأجانب من العرب وغيرهم إن لم يتوقع عودتها إلى الصين ثانية فلا يؤخذ أصحابها ، وإن عادوا فرضاً للمراقبة للسفن الواردة تنفذ فيهم ، أما المراكب الصينية التي تسافر إلى البلاد الأجنبية فيقيد كل ما فيها من الرجال والبضائع في دفتر خاص في مكتب المراقبة ، ويؤخذ أصحابها عند العودة إلى الصين إن وجدوا شيئاً مفقوداً منهم وليس عند أصحاب السفن بيان واضح مقبول عن الشيء المفقود ، ولقد بقيت هذه المراقبة قائمة بموانئ الصين إلى زمن ابن بطوطة (٥).

فقد ذكر ابن بطوطة أنه « من عادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد إليه صاحب البحر وكتبه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والتجار والبحارة وحينئذ يباح لهم السفر فإذا عاد الجنك إلى الصين صعدوا إليه أيضاً وقابلوا ماكتبه بأشخاص الناس فإن فقدوا أحداً ممن قيدوه طالبوا به صاحب الجنك ، إما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له وإلا أخذ فيه ، فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المراكب أن يملئ عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم يترل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم ، فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن وذلك النظام لا يوجد إلا بالصين »(٦).

٦- سياسة الصين في تشجيع التجارة مع الشرق الإسلامي في العصر المغولي :

فلما سيطر جنكيزخان على بلاد المغول بدأ يتطلع للسيطرة على الصين والدول المجاورة له في الشرق والغرب ونتيجة لاهتمامه بالتجارة ومكانتها لدى هذه القبائل المغولية وكان العامل الإقتصادي أحد الأسباب الخفية للغزو المغولي للشرق الإسلامي ، فقد كانت التجارة ذات منزلة كبرى في نظر جنكيزخان أثناء إغاراته فقد كان محتاجاً إلى منتجات بلاد

(١) - Chau Ju Kua : Op.Cit , p. 20 .

(٢) يظهر من هذا القول أن رسوم الجمرك قد خفضت منها منها ٢٠ في المائة بالنسبة لزمن سليمان التاجر .

(٣) بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٤) ماركو بولو : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٥) بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

الشرق الإسلامي والهند والصين، بالإضافة إلى احتياجه إلى أسواق خارجية يصرف فيها منتجات بلاد المغول ويستورد منها ما يلزم لمواطنيه . (١).

وهكذا فقد أصبح الطريق ممهداً لغزو الصين فقد اتخذ جنكيزخان قراراً بالاتجاه نحو الغرب بعد مغادرته الصين ، وهو الأمر الذى كان الهدف الأساسى فيه هو رغبته الشديدة فى القضاء على كشلوخان(٢) عدوه القديم وإن كان لا يخلو من هدف تجارى أيضاً حيث إن طريق الحرير التجارى قد أغلق نتيجة للخلافات والصراع الذى نشب بين السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خوارزمشاه وكشلوخان على الأراضى التى كانت إلى عهد قريب تابعة لدولة الخطا ، ذلك النزاع الذى أدى إلى إيقاف التجارة بين الشرق والغرب ، ومما زاد الأمر سوءاً أن طريق الخليج الفارسى (بحر فارس) قد أغلق كذلك نتيجة للنزاع الذى دب بين سكان هرمز وكيش مما أدى إلى نشوب أزمة تجارية حادة فى آسيا لهذا توسط التجار المسلمون لدى جنكيزخان لإنهاء هذا النزاع ولو إلى حد ما وفتح الطريق التجارى من جديد .

استطاعت قوات المغول تعقب كشلوخان وقتله وتم لجنكيزخان السيطرة على جميع القبائل التركية واستولى على أملاك دولة الخطا وأصبح بذلك يجاور أملاك الدولة الخوارزمية ، ومن هنا بدأ جنكيزخان صفحة جديدة فى علاقاته مع الدول المجاورة وخاصة علاقته مع الدولة الخوارزمية والتى يتضح من خلالها أهمية العامل التجارى كعامل أساسى لغزو جنكيزخان لهذه الدولة ، ويتضح ذلك من خلال أن جنكيزخان فى بداية الأمر لم يكن يفكر فى غزو الدولة الخوارزمية وإنما رغبة منه فى أن يعيش فى سلام وأن يفتح أسواقاً جديدة لمنتجات مملكته التى أضحت مترامية الأطراف ، ولتسهيل مرور قوافل التجار بين بلاده بالصين والشرق الإسلامى فقد شجع على إقامة علاقات تجارية بين مملكته والدولة الخوارزمية(٣).

وتتضح سياسة الصين فى تشجيع التجارة من خلال المعاهدة التجارية التى حرص جنكيزخان على عقدها مع السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه من أجل ضمان سلامة التجارة بين الجانبين .

أرسل جنكيزخان إلى علاء الدين خوارزمشاه رسالة مع محمود الخوارزمى ، وعلى خواجه البخارى ويوسف كنىكا الأترارى ، مصحوبين بمحلبات الترك من نقر المعادن (٤) ونوافج المسك وأحجار البشب والثياب وكانت الرسالة تشمل تشمل على طلب المسألة والمواذعة وسلوك مسلك المجاملة فقالوا له « إن الخان الكبير(٥) يسلم عليك ويقول : ليس يخفى عني عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطانك ولقد علمت بسطة ملكك ، وإنفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض ، وأنا أرى مسألتك من جملة الواجبات ، وأنت عندى مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضاً أنني ملكت الصين ومسا يليها من بلاد الترك وقد أذعنت لى قبائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادى ماثرات العسكر ، ومعادن الفضة ، وإن فيها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد »(٦).

فقد عمل جنكيزخان بعد إبرام هذا الاتفاق على تأمين التجارة بين شرق آسيا وغربها وتوسيع نطاقها ، فحرص على تأمين الطرق والضرب على أيدي المعتدين من قطاع الطرق ، فعين على رعوس الطرق الرئيسية حراساً من قبله يسمون

(١) السباعى محمد السباعى : عطا ملك الجوينى وكتابه جهان كشاي ، دار الزهراء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ١٤٣ : ١٥٧ .

H.G.Wells : A Short History of the World . New York , 1923 , p. 287 .

(٢) كشلوخان : زعيم قبائل النايغان وهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى يقطنون الحوض الأعلى لنهر أرخن ومنحدرات جبال آلتاى وحول البحيرات الواقعة فى تلك المناطق وقد هرب زعيمهم كشلو إلى بلاد الخطا . -

فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٩ ، ٢٣ .

(٣) السباعى محمد السباعى : المرجع السابق ، ص ١٥٧ : ١٦٦ .

(٤) نقر المعادن : النقر جمع نقرة وهى القطعة المضروبة من الذهب أو الفضة .

النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، تحقيق حافظ أحمد حمدى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٨٣ (٢٥) .

(٥) الخان الكبير : أى الخاقان والمقصود هنا جنكيزخان . النسوى : المصدر السابق ، ص ٨٣ (٥) .

(٦) النسوى : المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(قراقجية) أو (قراقجيان) أى مستحفظين ، وأعطى كلمة سلام للتجار الذين جاءوا إليه من كل جهة وأمر بعدم إيذائهم ، وكلف بهم حراس الطرق على أن يرافقوا كل أجنبي يحمل تجارة ما إلى معسكرات المغول (١).

قصد ثلاثة من تجار بخارى ديار المغول (٢) ومعهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس وأحمال من الأقمشة الفاخرة لما سمعوا أن للمتاع عند المغول قيمة وافرة . فلما وصلوا إلى نواحيهم وافاهم المستحفظون ووقفوا على ما معهم من السلع فأروا قماشاً لائقاً للخان مع تاجر منهم يسمى أحمد ، فسيروه مع صاحبه إلى الخان ، فعرض التاجر أحمد متاعه على الحُجاب ، وطلب في ثمن كل ثوب قيمته عشرة أو عشرين ديناراً ثلاثة بالشات ذهبية ، فغضب جنكيزخان لذلك وقال : ربما ظن هذا الغافل أننا ما رأينا ثياباً قط وأمر الخان فأراه من الأقمشة المذهبة التي أهداها إليه ملوك الخطا ، وأمر جنكيزخان بأن تحصى بضاعة هذا التاجر وتسجل أمتعته ثم أمر بنهب هذه البضاعة ووزعها على حاشيته وألقى التاجر في السجن .

ثم طلب حضور صاحبيه فعرضاً عليه متاعهما برمته وقالوا : لقد أتينا بهذا كله لنقدمه هدية للخان لا لنبيعه له ، فألح عليهما المغول أن يثمنوا بضاعتهم فلم يفعلوا ، فأعجبت هذه الكلمات الخان، فأمر جنكيزخان أن يعطيا لكل ثوب مذهب باليش من ذهب ولكل كرباسين باليش من فضة كما عطف أيضاً على زميلهما الآخر أحمد وعوضه بمثل ما أعطى زميليه وقد أكرمهم جنكيزخان فأقاموا فترة من الزمن ببلاده ناعمين بكل احترام وتقدير حيث كان المغول آنذاك ينظرون إلى المسلمين نظرة إعزاز واحترام وعاملوهم معاملة طيبة فقد أعطوهم خياماً جديدة طاهرة من اللباد الأبيض ليقيموا بها طوال فترة إقامتهم(٣).

فلما هموا بالرحيل والعودة إلى بلادهم أمر جنكيزخان أبناءه وقواده وصغار الأمراء أن يعد كل واحد منهم من قومه شخصين أو ثلاثة ، وأن يمدوهم برأس مال من بالشات الذهب والفضة لمصاحبة التجار المسلمين الثلاثة وقت عودهم إلى ولاية السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه للتجارة وحتى يجمعوا من طرائف هذه البلاد ونفائسها ما يصلح لهم فامتلوا لأمره ، وسير كل أمير شخصاً أو شخصين من قومه التابعين له .

فاجتمع بذلك أربعمئة وخمسون من التجار المسلمين (٤) وأرسل معهم جنكيزخان رسالة إلى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه يقول له فيها : « إن التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمئهم سالمين غانمين وقد سيرنا معهم جماعة

(١) النسوى : المصدر السابق ، ص ٨٥ (١٥) .

الجويني : جهان كشاي ، تحقيق محمد عبد الوهاب ، ترجمة السباعي محمد السباعي ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٧ ، ص ١٠٧ .

ابن العبري : مخطوطه تاريخ الأزمنة ، ترجمة شادية توفيق حافظ ، تقديم السباعي محمد السباعي ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط الأولى ، ٢٠٠١ ، ص ٢٢٩ .

(٢) ذكر ابن العبري أن هؤلاء التجار الثلاثة قصدوا ديار المغول سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م . وذكر بارتولد : أن جنكيزخان أرسل من جهته بسفارة وقافلة تجارية إلى الدولة الخوارزمية رداً على سفارة خوارزمشاه المكونة من ثلاثة تجار من بخارى ، وكان على رأس سفارة جنكيزخان محمود الخوارزمي وعلى خواجه البخاري ويوسف كنيكا الأتراري بهدف عقد معاهدة تجارية بين علاء الدين خوارزمشاه وجنكيزخان من أجل ضمان سلامة التجارة بين الجانبين .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩ .

بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط الأولى ، ١٩٨١ م ، ص ٥٦٦ .

(٤) الجويني : المصدر السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ . - ابن العبري : مخطوطه تاريخ الأزمنة ، ص ٤٦ .

(٤) الجويني : المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

من غلماننا ليحصلوا من ظرائف تلك الأطراف ، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق من ذات البين» (١).

استمر الحال على المسألة بين الجانبين إلى أن وصل من بلاد المغول تلك القافلة التجارية إلى مدينة أترار ، وقد كان ينال خان (٢) ابن خال السلطان (٣) في عشرين ألف فارس ينوب عن السلطان بها ، فشرهت نفسه الدنية إلى أموال أولئك التجار وكاتب السلطان مكتبة خائن كاذب يقول : « إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زى التجار ، وليسوا بتجار بل هم أصحاب أخبار يكشفون منها ما ليس من وظائفهم ، وإذا خلوا بواحد من العوام يهددونه ويقولون : إنكم لفي غفلة مما وراءكم وسيأتيكم ما لا قبل لكم به » ، وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان في الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه . واستغل ينال خان ذلك وقبض عليهم وقتلهم ، واستولى على أموالهم وأمتعتهم (٤).

فبعد هذا أخذ كل فريق يعد العدة للقاء وكان جنكيزخان قد وقف على قوة الجيش الخوارزمي (٥) فلما شارف جنكيزخان تخوم البلاد الخوارزمية اتجه مباشرة صوب أترار واستمر القتال ليلاً ونهاراً حتى استولى على جميع أملاك الدولة الخوارزمية ، وأحضر ينال خان بين يديه ، فأمر بسبك الفضة وصبها في أذنيه وعينه ، فقتل تعذيباً ، جزاء ما فعل (٦). هكذا تعاقبت الأحداث وارتكبت الدولة الخوارزمية أخطاء جسيمة جرت بها دماراً شاملاً عليها وعلى الشرق الإسلامي كله ، فبقتلهم التجار المغول ثم قتل أحد الرسل الذين طالب بهم جنكيزخان تسلم ينال خان للانتقام منه على ما فعل ، وإهانة سفرائه كل هذا جعل جنكيزخان يقرر غزو أراضي الدولة الخوارزمية متخذاً من حادثي قتل التجار وإهانة سفرائه ذريعة لهذا الغزو (٧).

• ذكر النسوي أن عدد هؤلاء التجار أربعة وهم عمر خواجه الأتراري ، والجمال المراغي ، وفخر الدين الدنركي البخاري ، وأمين السدين المروى . بينما ذكر الجويني أنهم أربعمائة وخمسون من التجار المسلمين ، وذكر ابن العبري في كتابه مخطوطه تاريخ الأزمنة أنهم حوالي أربعمائة تاجر ، وذكر ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول أنهم مائة وخمسون تاجراً من مسلم ونصرائي وتركى وأرسل معهم رسولاً إلى السلطان

النسوي : المصدر السابق ، ص ٨٥ . - الجويني : المصدر السابق ، ص ١٠٨ . -

ابن العبري : مخطوطه تاريخ الأزمنة ، ص ٤٦ . - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠ .

* من الراجح أن هؤلاء التجار كانوا من المغول وليسوا من المسلمين كما ذكر الجويني أو من فئات مختلفة من مسلمين ونصاري وأتراك كما ذكر ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول ، فعبارة التجار المسلمين لا تتفق مع بعض العبارات الأخرى المشار إليها بل تتناقض مع ذلك وهذه العبارات مثل (من قومه ... ، من قومه التابعين له ... ، وجماعة من غلماننا ...) فهذه العبارات لا تدل أبداً على أن التجار المرسلين من قبل جنكيز خان كانوا من المسلمين بل تدل على أن هؤلاء التجار من المغول ، وإلا فلما قام جنكيز خان بحرب مثل التي قام بها لتدمير الدولة الخوارزمية من أجل الانتقام هؤلاء التجار .

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠

(٢) ينال خان : ذكره الجويني بعدة ألقاب ومنها (ينال خان ، إينال جوق ، غايرخان)

الجويني : المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) ذكر النسوي أن ينال خان هو ابن خال السلطان بينما ذكر الجويني أنه واحد من أقارب والدته السلطان (تركان خاتون) في حين ذكر

السيوطي أنه خال السلطان . النسوي : المصدر السابق ، ص ٨٥ . -

الجويني : المصدر السابق ، ص ١٠٨ . - السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين ، المكتبة التجارية الكبرى ومطبعة السعادة ، ط الأولى ، ١٩٥٢ ، ص ٤٦٩ .

(٤) النسوي : المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٥) السباعي محمد السباعي : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٦) النسوي : المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٧) السباعي محمد السباعي : المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

• ولمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين علاء الدين محمد خوارزمشاه وجنكيزخان انظر : /

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت - لبنان ، ط ٦ ، ١٩٩٥ ، ج ١٢ ، ص ٣٦١ : ٣٦٤ . -

يتضح لنا أن السفارات والبعثات الدبلوماسية التي كانت إحدى أهم الوسائل لتشجيع التجارة وكثيراً ما كانت تحمل دعوة الخير وحسن العلاقة أو رعاية المصالح المختلفة ومنها المصالح الاقتصادية وبخاصة تنشيط التجارة ، وكانت أيضاً في بعض الأوقات سبباً في قيام الحروب بين الدول ، فقد كان السفراء والمبعوثون يعدون رمزاً لدولهم وبالتالي كانت لهم كافة الحقوق التي لرئيس دولتهم ، فإذا كان المبعوث له هذه المكانة ويستمتع بهذه الحقوق فإن الاعتداء عليه يعد بمثابة إعلان الحرب على دولته (١).

النورى : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق سعيد عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ج ٢٧ ، ص ٢٣٩ : ٢٤٣ .

- الذهبي: دول الإسلام ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ٢ ، ص ١١٨ .
 ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٢ ، ج ٥ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
 السيوطي : المصدر السابق ، ص ٤٦٧ : ٤٧١ .
 إبراهيم أحمد العدوى : العرب والتار ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤٧ : ٥٢ .
 براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ج ٢ ، ص ٥٥٧ ، ٥٥٨ .
 عبادة كحيلة : العقد الثمين في تاريخ المسلمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠١ ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .
 حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٧ : ٧٤ ، ١١٤ : ١١٩ .
 فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ، ص ٤٥ : ٥٨ .
 السباعي محمد السباعي : المرجع السابق ، ص ١٧١ : ١٧٩ .
 ثروت عكاشة : إعصار من الشرق (سيرة جنكيز خان) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٣ : ١٦٦ .
 (١) أحمد شلبي : موسوعة الحضارة الإسلامية العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٨٧ ، ج ٩ ، ص ٢٨ : ٣٣ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

١- المصادر العربية :

ابن الأثير	عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت - لبنان ، ط السادسة ، ١٩٩٥ .
الإدرسي	أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . WWW.al-mostafa.com . To PDF :
ابن بطوطه	محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) تحفة النظار في غرائب الأمصار ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
ابن خلدون	عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط الأولى ، ١٩٩٢ .
الذهبي	محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) دول الإسلام ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
سليمان التاجر وأبو زيد السيرافي	سليمان التاجر (عاش في النصف الأول من القرن ٣ هـ / ٩ م) وأبو زيد السيرافي (عاش في نهاية القرن ٣ هـ / ٩ م وأوائل القرن ٤ هـ / ١٠ م) أخبار الصين والهند ، تحقيق يوسف الشاروني ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط الأولى ، ٢٠٠٠ .
السيوطي	جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين ، المكتبة التجارية الكبرى ومطبعة السعادة ، ط الأولى ، ١٩٥٢ .

- ابن العبري	غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملقب (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) - تاريخ مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط الأولى ، ٢٠٠١ . - مخطوطة تاريخ الأزمنة ، ترجمة شادية توفيق حافظ ، تقديم السباعي محمد السباعي ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٧ .
- القرماني	أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، عالم الكتب ، بيروت - لبنان ، د.ت
- ماركو بولو	ماركو بولو نيقولو بولو (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م) رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط الثانية ، ١٩٩٥ .
- المسعودي	أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٢ .
- ابن منظور	جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط الثالثة ، د.ت .
- النسوي	محمد بن أحمد النسوي (عاش في القرن ٧ هـ / ١٣ م) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- النويري	شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق سعيد عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ج ٢٧ ، ١٩٨٥ .
- ياقوت الحموي	ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط الأولى ، ١٩٩٠ .

٢- المصادر الفارسية :

- الجويني	علاء الدين عطا ملك الجويني (ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) جهان كشاي ، تحقيق محمد عبد الوهاب ، ترجمة السباعي محمد السباعي ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ط الأولى ، ٢٠٠٧ .
- الكرديزي	أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود الكرديزي (ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥١ م) زين الأخبار ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، دار الطباعة الحمدي ، القاهرة ، ط الأولى ، ١٩٨٢ .
- نظام الملك الطوسي	أبو علي الحسن بن علي (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) سياست نامه ، ترجمة يوسف حسين بكار ، دار الثقافة ، الدوحة - قطر ، د.ت .

٣- المصادر الأجنبية :

Chau Ju Kua : His Work on the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries , Translated from Chinese by Hirth & Rockhill , New York , 1966 .
--

ثانياً : المراجع :

١- المراجع العربية والمعرية :

- إبراهيم أحمد العدوي	العرب والتتار ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- أحمد شلبي	- موسوعة الحضارة الإسلامية العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط الخامسة ، ١٩٨٧ .
- أنور الجندي	- الإسلام تاريخ وحضارة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د.ت .

طريق الحرير ، ترجمة أحمد محمود ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٧ .	- إيسرين فرنسك وديفيد براونستون
تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط الأولى ، ١٩٨١ .	- بارتولد
فجر العلم الحديث (الإسلام - الصين - الغرب) ، ترجمة أحمد محمود صبحي ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٧ .	- توي . أ. هاف
إعصار من الشرق ، دار المعارف ، القاهرة ، ط الرابعة ، ١٩٧٥ .	- ثروت عكاشة
العرب والملاح في المحيط الهندي ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .	- جورج فضل حوران
الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٩ .	- حافظ أحمد حمدي
تاريخ الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط الثالثة عشر ، ١٩٩١ .	- حسن إبراهيم حسن
حضارة العرب في العصر العباسي ، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤ .	- حسين الحاج حسن
عطا ملك الجويني وكتابه جهان كشاي ، دار الزهراء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩١ .	- السباعي محمد السباعي
تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٠ .	- شوقي عبد القوي عثمان
العقد الثمين في تاريخ المسلمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط الثانية ، ٢٠٠١ .	- عبادة كحيل
تقدم العرب في العلوم والصناعات ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط الأولى ، ١٩٦١ .	- عبد الله بن العباس الجراي
معالم تاريخ وحضارة الإسلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨ .	- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي
الإسلام في الصين ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨١ .	- فهمي هويدي
المغول في التاريخ ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٠ .	- فؤاد عبد المعطي الصياد
الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ .	- محمد فتحى الشاعر
تاريخ التجارة في الشرق الأدنى ، ترجمة أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ .	- هايد

٢- المراجع الفارسية المعربة :

تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي ، ج ٢ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥ .	- براون
---	---------

٣- المراجع الصينية المعربة :

العلاقات بين العرب والصين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط الأولى ، ١٩٥٠ .	- بدر الدين حى الصينى
--	-----------------------

٤- المراجع الأجنبية :

- Bosworth : The Medieval History of Iran , Afghanistan and Central Asia , An Alleged Embassy from Emperor of China to Amir Nasr B. Ahmad , London , 1977 .

- Wells : A short history of the world , New York , 1923

ثالثاً : الدوريات :

الدوريات العربية :

- قوة ينغ ده : تاريخ العلاقات الصينية العربية ، ترجمة تشانغ جيامين ، مجلة الصين اليوم ، الأعداد / ٨ أغسطس ٢٠٠٢ ، ١٢ ديسمبر ٢٠٠٢ ، ١١ نوفمبر ٢٠٠٣ .

<http://www.Chinatoday.com>

خاتمة البحث

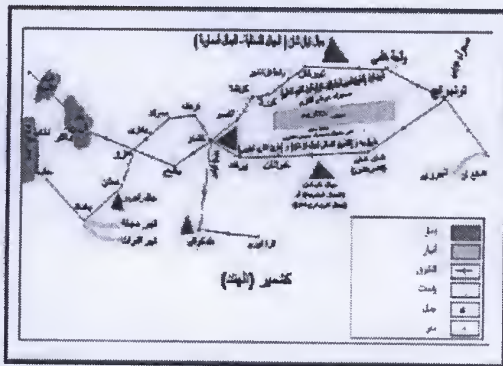
- وختاما فقد اسهمت هذه الدراسة في توضيح كيف ساهمت سياسات كل من الشرق الاسلامي والصين لتشجيع التجارة في تنشيط حركة التجارة بين الجانبين وذلك من خلال توضيح :
- اهتمام الخلفاء العباسيين وحكام الدول المستقلة بتسهيل سبل التجارة وتأمين طرق التجارة الخارجية والداخلية وإقامه علاقات ودية مع حكام الصين ومعامله التجار الاجانب معامله حسنة .
 - اجراءات الدولة السامانية لتشجيع التجارة مع الصين من خلال استخدام اسلوب البعثات والسفارات التجارية بالإضافة إلي علاقة المصاهرة التي ربطت بين آل سامان وملوك اسرة كين في شمال الصين والتي فتحت طرق التجارة أمام تجار الجانبين .
 - أثر تردد التجار العرب علي الصين - وخاصة في عهد أسرة سونغ - في هيئة مبعوثين حتي قيل أن السفارات التي جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء .
 - وعلي الجانب الآخر عملت الصين أيضا علي تشجيع التجارة مع الشرق الإسلامي وذلك من خلال :
 - اهتمامها بالتجارة والسفارات التجارية حيث عملت الحكومة الصينية علي وضع التجارة تحت يدها وجعلتها أحد احتكاراتها ، وكذلك شجعت التجار علي الخروج في وفود إلي سواحل المحيط الهندي لترغيب التجار العرب في القدوم إلي الصين .
 - عملت الحكومة الصينية علي الاهتمام بالتجار وحسن معاملتهم وتوفير الأمن والامان لهم .
 - اهتمت الحكومة الصينية أيضا بالفنادق والخانات ووضعت لها نظم وقوانين صارمه لمراقبة هذه الاماكن للمحافظة علي امن التجار واموالهم .
 - اهتمت الحكومة الصينية ايضا بنظم واشكال الأسواق ووضعت لها جهاز رقابي صارم وكذلك اهتمت بمراعاه القوانين المنظمة للضرائب والمكوس الجمركية .

ـ لي رونج جيان : تاريخ العلاقات الصينية العربية ... حاضرها ومستقبلها ، ٢٠٠٦ .

<http://www.arabsino.com>

ـ محمد أحمد محمد : العلاقات الدبلوماسية بين بني سامان وملوك الصين ، مجلة كلية الآداب ، سوهاج ، العدد الرابع ، ١٩٨٥ م .

ـ منى حسن أحمد محمود : طرق التجارة في العالم الإسلامي ، ندوة طرق التجارة العالمية ، اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .



مخطط يوضح طرق التجارة العالمية بين الشرق الإسلامي والصين



مخطط يوضح طرق التجارة العالمية بين الشرق الإسلامي والصين

- كان عدل أباطرة الصين وسماحتهم وحسن معاملتهم للتجار المسلمين أحد أهم العوامل التي شجعت التجار العرب علي القدوم الي الصين للتجارة بل والاستقرار بها أيضا .
 - علي الرغم من أن بدايات العصر المغولي كانت أحد اهم الفترات التي انقطعت فيها العلاقات الدية بين الشرق الاسلامي والصين بسبب غزوات المغول للشرق الإسلامي إلا أن المغول في بداية حكمهم ومع سيطرتهم علي الصين وقبل غزوهم للعالم الإسلامي حرصوا في البداية علي إقامة علاقات تجارية مع الشرق الإسلامي تمثلت في الاتفاقية التجارية التي حرص جنكيزخان علي عقدها مع الدوله الخوارزمية .
 - واخيرا ، ويبدو من هذا كله ان التجار المسلمين تمتعوا برعاية خاصة من جانب حكومة الصين وكانت هذه الرعاية نتيجة انهم كانوا يمثلون العصب الرئيسي للتجارة هناك ، ولهذا فمن المؤكد ان هذه المعاملة الحسنة للتجار المسلمين وشعورهم بالأمن وترحيب السلطات بهم دفعهم إلي مداومه التجارة مع الصين .
- والله ولي التوفيق ،،،